هيلفيتيوس وكنت

وأثرهما في فن التربية

لحسن كامل

﴿ هيلفيتيوس (١٧١٥—١٧٧١) ﴾ . وضع هيلفيتيوس كتاباً ضخماً عنوانهُ « الانسان وتربيته وملكاته الفكرية » . وقد قضى خمسة عشر عاماً في كتابته ولم يظهر هذا الكتاب الاَّ بعد موته في عام ١٧٧٢ . والحقيقة ان المؤلف لم يتناول بالبحث مسائل التربية الاَّ في الفصلين الأول والأخير من هذا الكتاب . اما باقي الكتاب فهو دراسة لمبادىء فلسفية كالمساواة الفكرية بين الناس وتأثير القوانين في سعادة الشعوب وما الى ذلك من الشؤون الفلسفية

﴿ اثر التربية ﴾ . يقول هيلفيتيوس « ان أثر التربية كبير في تكوين الافراد بل هي سبب كل ما يوجد من فروق بين عقول بعضهم وعقول البعض الآخر . وان عقل الطفل كفاءة فارغة بل شيء غير محدود ليس لهُ استعداد خاص . وان التأثيرات المحسوسة هي التي تكوّن الذكاء وعلى ذلك فأهم الاشياء هو ما نكتسبه بواسطة الحواس التي هي في الواقع اقنع ما في الانسان » . ويقول ايضاً « ان التأثيرات المحسوسة هي جوهر الطبيعة الانسانية » . ولما كانت هذه التأثيرات تختلف باختلاف الظروف فان هيلفيتيوس يستنتج ان تكوين العقول والاخلاق متوقف على الصدفة ويعتقد انهُ من المستطاع ان نكون رجالاً نابغين او على الاقل ذوي مواهب خارقة . وانهُ لتحقيق هذا الغرض يكفي ان نلاحظ بدقة الوسائل التي تستخدمها الصدفة لاخراج الرجال العظماء . فاذا عرفنا هذه الوسائل لم يبقَ علينا الاَّ ان نستخدمها لنصل إلى النتيجة نفسها . ويؤكد هيلفيتيوس ان غرابة هذا الرأي لا تعارض بتاتاً مع صحته . ويضيف الى ذلك قوله « ان الدوغ ثمرة من ثمرات الصدفة » وروسو كغيره من الرجال المعروفين كثيري العدد ليس الاَّ تحفة من تحف الصدفة

﴿ ديدرو يفند هذه الآراء ﴾ . وقد فند ديدرو آراء هيلفيتيوس فأعاد الى طبيعة الانسان وميوله التي تولد معهُ ماطا من تأثير في تكوين الخلق . فالواقع انهُ على الرغم من كل ما يقال عن اثر التربية فهي لا تستطيع ان تخلق الميل خلقاً او تحل محل الطبيعة . وغاية الامر — كما يقول احد علماء

التربية — هي ان التربية الحسنة ترفع مستوى التفكير بينما تهبط به التربية السيئة فيختنق ويضل

ومهما يكن من أمر فان هيلفيتيوس لم يجد من يؤيد رأيه الذي يفسره الخطأ من كل نواحيه. ذلك الرأي القائل بأن ارضاء الاحساس الجثماني هو اساس كل تربية فكرية او خلقية

﴿ كَنْت (١٧٢٤ — ١٨٠٤) ﴾ — كان لكنت اكبر الأثر في اتساع نطاق الفلسفة وإن من حسن طالع التربية أن هذا المفكر الكبير خصص جانباً من وقته لبحث مسائلها. ولقد ساعدته احوال كثيرة على الاهتمام بالتربية فقد كان شديد الاعجاب بروسو فقرأ كتابه «أميل» بعناية تامة وشغف كبير ثم إن تربيته الدينية في كلية فردريك أوحت اليه بآراء خاصة عن هذا النوع من التربية كما انهُ اكتسب تجربة كبيرة من اضطلاعه بتربية ابناء بعض الامراء. واخيراً فقد كانت دراسته العميقة الطبيعية الانسانية والفلسفية الخلقية انسانية عاملاً من عوامل تهيئته لبحث مسائل التربية

وقد كان كَنْت استاذاً في جامعة كونجسبرج وكان ميله لمسائل التربية ظاهراً. فكتب فيها بحوثاً جمعها أحد زملائه في كتاب عنوانهُ «رسالة في علم التربية» وهو الكتاب الذي سنتحدث عنه

﴿ فكرتهُ السامية في التربية ﴾ يرى كَنْت أن أهم الفنون وأكثرها سمواً هو فن تربية الرجال وإن هذا الفن هو السبيل الوحيد لاصلاح الانسانية. فيقول «من الخير أن نعتقد ان الطبيعة تساعد على ان يسير الإنسان في سبيل التقدم والتحسن اللذين يليقان به. ولأجل ان نعرف مبلغ اثر التربية في الطبيعة الانسانية يجب أن نكل امر تربية الرجال إلى إنسان خارق في ذكائه وطبيعته. ويقول ايضاً: لأجل ان تحقق التربية غرضها الاسمى يجب ان تتحرر من قيود الاساليب والتقاليد التي تحيط بها. كما ينبغي ان يكون الغرض من تربية الاطفال ان نساعدهم على النجاح لا في المجتمع الانساني الحالي ولكن في مجتمع انساني مستقبل اكثر سمواً من المجتمع الحالي

﴿ تفاؤل نسبي ﴾ يقترب كَنْت من روسو في اعتقاده في طهر الانسان الفطري وان طبيعة ميوله الطبيعية طيبة كاملة. فهو يقول إن مصلح الاخلاق يعمل طوع امر الطبيعة كالطبيب سواء بسواء ويقول ايضاً: يجب ان يقتصر عمل من يتعرض لاصلاح الاخلاق على استمداد المؤثرات الخارجية السيئة. وانني لاثق ان من اسهل الامور على الطبيعة ان تجد لنفسها الطريق السوي

ولهذا السبب كان كَنْت لا يعلل الاكبار من شأن الخدمات التي اداها روسو لعلم التربية بتوجيهه نظر المربين الى ضرورة الثقة بالطبيعة الانسانية التي «طالما اغتالها المغتابون». ولكن هذا لا يعني أن هذا الفيلسوف الالماني الكبير اكتفى بتكرار ما قالهُ روسو قبله بل انهُ صحح كثيراً من اخطائه فكتب يقول: «لا يكون الانسان عند ولادته طيباً ولا خبيثاً» وكتب ايضاً: «ليس الانسان كائناً كريم الخلق بطبعه. وهو لا يصبح كذلك الاَّ اذا ارتفع بعقله الى مستوى فكرة احترام الواجب والقانون». وهذا يعني ان الطفل كائن في حالة الكون يتوقف فساده او صلاحه

على نوع التربية التي يتلقاها . اما ميول الطفل الاصلية فلا يمكن تحديدها . فاذا ظهرت عنده رذيلة من الرذائل فذلك لا يرجع الى ميل خاص في طبيعته ولكن الى خطاء وقع في توجيه هذه الطبيعة او على الاصح الى انها لم تخضع لما كان يجب ان تخضع له من قواعد خاصة

﴿ احترام حرية الطفل ﴾ وقد كان من نتائج تهاون كنت النفساني انهُ اوحى اليه — كما اوحى لروسو قبله — بفكرة التربية السلبية التي تقوم على احترام حرية الطفل . فكتب يقول يجب ان تكون التربية الاولى سلبية بمعنى انهُ ينبغي علينا ان نتخذ في تربية الاطفال الوسائل الطبيعية وان نقتصر على ان نتجنب هدم ما لها من آثار . ومن الخير الا نكثر من استخدام الوسائل المختلفة في تربية الطفل . بل الافضل ان نتركه يتعلم من تلقاء نفسه . فكثيراً ما تكون المؤثرات السيئة الباطلة هي مصدر ضعف الانسان ولا يكون للجهل دخل في هذا الضعف

وكان كنت شديد الاحترام لحرية الطفل يتألم اذا سمع ان أباً من الآباء يريد كبت ابنه ويقول انهُ ليس من المصلحة أن نبالغ في مقاومة ارادة الطفل وانهُ ليس ثمة ما يضير الطفل اكثر من استثارته وتحقيره . ولكن الفيلسوف الالماني بالغ في دفاعه عن الحرية الانسانية واستقلال الارادة فهو يخشى تسلط العادات الى حد انهُ ينصح بألا تكون للاطفال عادة خاصة من العادات وفي هذا — كما يقول احد علماء التربية — « الغاء للتربية بأسرها لانها تقوم على اكتساب مجموعة من العادات الطيبة »

﴿ الحكايات الخرافية ﴾ وبين كنت وروسو شبه كبير ايضاً فيما يتعلق بالتربية الفكرية أو تربية المواهب التي يسميها كنت « التثقيف الجماني للنفس » وهو ما يقابل عنده التثقيف الخلقي او تربية الارادة . فهو يحرم على الاطفال قراءة القصص والحكايات الخرافية وذلك لانهُ يعتقد ان خيالهم واسع ليس في حاجة الى النمو عن طريق الخرافات . واكثر المربين لا يرون رأي كنت فهم يعتقدون ان الخرافات الخيالية الناضة توسع الخيال وتوجهه التوجيه الخلقي الصحيح كما انها تكسبه جمالاً بما فيها من ظرف خاص بها . وقد كان روسو ينتقد انتقاداً شديداً خرافات لافونتين ولكنهُ كان يعتقد مع ذلك ان للتعليم الرمزي فائدة خلقية كبيرة

﴿ تثقيف المواهب ﴾ — وكنت يتميز عن غيره من المربين باهتمامه بتثقيف المواهب اكثر من اهتمامه بالعمل على الاكثار من المعلومات . وقد درس القوى الفكرية المختلفة وتعتبر آراؤه فيها مجموعة مهمة من النظريات النفسانية التي تساعد المربين على القيام بمهمتهم الدقيقة

﴿ تثقيف ملكة الفهم عند الطفل ﴾ ويعتقد كنت أن الطريقة السلبية هي اصلح الطرق . ويعني بذلك أننا في تعليمنا للطفل يجب أن نطالبه بأن يجد بنفسه الأمثلة التي تنطبق على قاعدة خاصة أو على العكس ينبغي أن نطالبه بأن يجد من تلقاء نفسه القاعدة التي تنطبق على

أمثلة خاصة — وهو يعتقد انما اذا اردنا انماء ملكات الطفل الفكرية فان احسن الوسائل هي ان نترك الطفل يعمل بنفسه لان اقصر الطرق المؤدية الى فهم الامور ولان من الثابت ان الاشياء التي تعلمها من تلقاء انفسنا هي انفع الاشياء لنا

﴿ العقوبات المختلفة ﴾ — يقسم كنت العقوبات الى عقوبات جثمانية وعقوبات معنوية . ويفضل هذا النوع الثاني من العقوبات الذي يتلخص في اذلال التلميذ ومقابلته ببرود « ليثور بذلك عليه لأن يتبجل ويحتقب » . ورأيه ان تطبق العقوبات الجثمانية بحذر لئلا ينتج عنها عند الطفل استعداد للذلة والاستكانة . ثم هو يقسم العقوبات تقسيماً آخر فيميز بين العقوبات الطبيعية والعقوبات المفتعلة ويفضل الاولى على الثانية « لانها النتيجة الطبيعية لخطإ الطفل . فسر الهضم مثلاً هو عقاب طبيعي للاسراف في الاكل . وان من ميزات العقوبة الطبيعية انها تدوم مدى الحياة » وهذا هو الواقع في كثير من الاحيان . ولكنت تقسيم ثالث ، فهو يفرق بين العقوبات السلبية والعقوبات الايجابية . وينصح باستخدام الاولى اذا كان خطأ الطفل بسيطاً . اما اذا كان جسيماً يدل على سيل شرير عند الطفل فالعقوبات الايجابية في رأيه اصلح

وينصح كنت المدرس بألا يظهر في اي حالة من الحالات بأنه يكن ضغينة لتلميذه ويقول في ذلك « إن العقوبات التي يوقعها المدرس والشرير تطاير من عينيه تخطىء الهدف ولا تحقق الغرض منها »

﴿ التربية الدينية ﴾ — يرى كنت انه ينبغي ان نهيئ الطفل منذ نعومة اظفاره لفهم الآراء الدينية الصحيحة وذلك خيفة ان يتأثر بما ينسبه الجهلة للدين من الخرافات السخيفة ويقول في هذا الصدد ان من سمة التفكير وبله ان نفهم ضرورة التربية الدينية . ولعل خير وسيلة لتقريب فكرة وجود الله لفهم الطفل هي ان نوجد له اوجه شبه بينه وبين رب العائلة »

ويريد كنت ان نبدأ بافهام الطفل واجبه ثم نفهمه بعد ذلك ان هناك الهاً اي انه يريد اولاً أن نزرع في نفس الطفل مبادىء الاخلاق ثم نفسر له بعد ذلك مبادىء الدين . ويعتقد ان الدين يصح خرافة لا اكثر ولا اقل ان لم يسبقه فهم مبادىء الاخلاق

﴿ تعاليم الدين الخلقية ﴾ — ويقول كنت في ما لتعليم الاخلاق الكريمة من الشأن : « ينقص مدارسنا شيء كان من شأنه ان يساعد على بذر بذور الاخلاق الكريمة في نفوس الاطفال ألا وهو تعاليم الدين الخلقية » . وكان كنت قد بدأ فعلاً في وضع كتاب عنوانه « تعاليم الدين الخلقية » ولكنه لم يتمه . وهو يعتقد انه يجب تخصيص ساعة من الدراسة اليومية لافهام التلاميذ « حقوق الانسان اي ظل قوة الله على الارض »

ويرى ان من طبيعة التعاليم الدينية المتعلقة بالاخلاق : « انها تحل الخوف من الضمير محل الخوف من الله والناس . والاعتزاز بالنفس محل السير وراء آراء الآخرين . والقيمة الحقيقية للاعمال محل القيمة الظاهرة للالفاظ . والتقوى الهادئة الضاحكة محل التعبد المظلم الحزين »